

سِمَاتُ القُدْوَةِ
فِي قِصَّةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ
دراسةٌ ومقارنةٌ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

إعداد :

د. فهد بن محمد بن عبدالله الماجد

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة شقراء
المملكة العربية السعودية

ملخص البحث

يهدف البحث إلى إبراز قدوة صالحة للمسلمين عامة، وللدعاة خاصة، وقد ذكر القرآن العظيم نماذج كثيرة منها، اختار الباحث قصة مؤمن آل فرعون الواردة في سورة غافر ، حيث عاش المؤمن –رحمه الله– في حكم فرعون الذي طغى وتجبر على الناس، ومع ذلك لم يمنع المؤمن –رحمه الله– من الانتصار للحق، فكانت عاقبته فلاحاً ، ونجاة من البطش؛ وكذلك من أراد الفوز والنجاة، فليسلك سبيلهم.

وقد أمر ربنا –جلَّ شأنه– نبيه محمداً –صلى الله عليه وسلم– بالاقتداء بهدي المرسلين والمصلحين من قبل؛ فاقتفى أثرهم وفاقهم، فقَرَنَ الباحث ما فعله المؤمن –رحمه الله–، وقارنه بسيرة المصطفى –صلى الله عليه وسلم–.

ومع تعدد الصفات الواردة في قصة مؤمن آل فرعون، رأى الباحث إجمالَها في أربع سمات: الإيمان والحِكمة، الجدال بالحق والمنطق، النُّصرة لأهل الإيمان، الوعظ والتذكير.

abstract

The researcher states the good role model characteristics in the story of the believer of pharaoh's people that mentioned in Qafer.

Also, he extracts the prophet Mohammed's behaviors in Quran and Sunnah and compare them with the believer's behaviors.

In addition to that, he Indicates to follow Muslim scholars. The characteristics can be summarized in four points :faith and wisdom,logical and true arguments,adherence for believers and preaching.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على قدوتنا وهادينا إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد..

فقد أنزل علينا ربنا -سبحانه- القرآن الكريم، هدى للعالمين، ونوراً للمستبصرين، دلَّنا فيه عليه، ووعظنا به إليه، جعل فيه دلائل الإعجاز، وبراهين الحق، وأودع فيه سِيرَ الأنبياء والمرسلين، ومواقف الدعاة والمصلحين؛ تبياناً ونورا، وهدى ونبراساً، ((وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)) [هود: ١٢٠].

وفي القصص القرآني عِبرٌ دائمة، وذِكرى سائرة، جاء فيها: إظهارٌ وإبرازٌ لقدوات يهتدي بهديهم من أتى بعدهم من أهل الإيمان، سيما الدعاة إلى الله، الذين يسيرون في الناس مسيرة الإصلاح على بينة وبصيرة، وعلم ورحمة.

إنَّ منطق المؤمنين في الأمم ومنهجهم واحد؛ لأنَّ مصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، وقد سطَّر أئمة الإسلام من لدن آدم -عليه السلام- سِيَراً عطرة، وأياماً خالدة، مواقفَ صِدق، وذِكرى فضلٍ ونُبْل؛ فاهتدى بهم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وفاقهم، واقتفى أثرهم وسادهم. صلى عليهم وسلم أجمعين.

ورأيتُ أن أشارك المجلة العلمية، الصادرة من كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط – جامعة الأزهر بإحدى قَصص القرآن العظيم، الذي خلَّد فيه سيرة أحد المؤمنين السابقين؛ لِما في فعله من أثر، ولِما لقوله من فائق نظر، أقصدُ به: مؤمن آل فرعون، وسيكون عنوان البحث : "سمات القدوة في قصة مؤمن آل فرعون دراسة ومقارنة بسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم".

أهمية البحث:

- لِما في ذكر قصص أئمة الهدى من هدى يُهدى به أهل الإيمان إلى ما أراد الله؛ فقد ذكرهم ربنا –جلَّ وعلا– في كتابه وأثنى عليهم، وجعلهم للناس قدوة وأسوة.
- عاش مؤمن آل فرعون في ملأٍ طاغين مفسدين، وهو يشابه ما يعيشه بعض المسلمين في بلدانهم.
- تعددُ جوانب القدوة في سيرة المؤمن –رضي الله عنه–، وذِكرُ ما يوازيه من سيرة نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

أهداف البحث:

- بيان سمات القدوة في سيرة مؤمن آل فرعون من خلال ما قصَّه علينا ربنا –جلَّ ثناؤه– في سورة غافر.
- ذكر ما في سيرة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– في القرآن وفي السنة مما يوافق فعل مؤمن آل فرعون.

- الحث على التأسي والاقتداء بسير أئمة الهدى.

خطة البحث ومحاوره:

ولمَّا درستُ سيرةَ مؤمنِ آل فرعون رأيتها محتويةً على دروسٍ وعِبر، وجوانب حقيق على أهل الإيمان أن يعيدوا فيها الذِّكر والنظر؛ فيتأسوا ويقتدوا، ويحتذوا ويهتدوا، فقد كان المؤمن –رضي الله عنه– : حكيماً مؤمناً، واعظاً ناصحاً باذلاً، داعياً إلى الله، مجادلاً قومه بالعقل واللين، مدافعاً عن أولياء الله الصالحين، ضارباً لهم الأمثال، مُذكِّرا بيوم المعاد، كان المؤمن –رحمه الله– موحِّداً صادقاً، متبرِّئاً من الشرك نابِذاً له، أخفى إيمانه حِكمةً حِيناً، ثم نطق به وأظهره حقاً وديناً، كان محِبّاً لقومه مشفقاً عليهم، مفوضاً أمره للمولى –سبحانه– لما كِيدَ به، مذكراً بالبينات والبراهين الربانية، ذا منطق رصين، وجدال بالحق مبين، تجلت فيه صفات الرجولة، مُظْهِراً علمه وفضله على قومه.

ويمكن أن يكون تقسيم هذه الصفات وغيرها من صفات المؤمن –رضي الله عنه– في صفات أربع هي أجلاها وجماعها؛ تكونُ هي محاور هذا البحث؛ وهي:

المبحث الأول: الإيمان والحِكمة.

المبحث الثاني: الجدال بالحق والمنطق.

المبحث الثالث: النُّصرة لأهل الإيمان.

المبحث الرابع: الوعظ والتذكير.

وسوف أمهِّدُ للبحث **بتمهيد** يشمل: أ- معنى القدوة. ب- مؤمن آل فرعون سيرة موجزة.

خاتماً هذه الأوراق بالنتائج والتوصيات.

إجراءات البحث:

سأذكر بادئ المبحث جوانب القدوة في سيرة المؤمن.

ثم أُعْقِبُ ذلك بقول: وهكذا كان محمد -صلى الله عليه وسلم- ثم أذكرُ ما يوازي فعل المؤمن -رضي الله عنه- بما فعله سيد البشر صلى الله عليه وسلم.

لقد حوت قصة المؤمن -رضي الله عنه- أحداثاً فيها دروس، ومعالم يعقبها عِبر، والمقصود : جمعُ جوانب الاقتداء بالصالحين من قبلنا، أمَّا التفسير التحليلي للآيات، وذكر خلاف المفسرين، وعرض القراءات وتوجيهها ونحو ذلك، فلن أذكره؛ لأنه -مع جودته- ليس هذا موضعه، وموضوع البحث هو التدبر وهدايات القرآن المجيد.

واسأل الله التوفيق والإعانة، والسداد والإبانة، وأن يَسير بنا في ركب أهل الإيمان، ويجعلنا للمتقين إماما، وأن يبصرنا بسيرة المرسلين، ومن تبعهم ونصرهم من أهل الملة والدين، ويجعلنا على خطاهم نسير، إنه وليُّنا، فنعم المولى ونعم المعين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

التمهيد

أ - معنى القدوة في اللغة والقرآن:

أصلُ لفظِ القُدْوَةِ والقِدْوَةِ من القَدْو والاقتداء وهو الاهتداء والتأسي، قال ابن فارس: "القاف والدال والحرف المعتل أصل صحيح، يدل على اقتباس بالشيء واهتداء...ويقولون :إن القَدْو: الأصل الذي يتشعب منه الفروع"[١].

وفي اللسان: " والقُدوة والقِدوة :الأُسوة .يقال :فلان قدوة يقتدى به"[٢].

وقال أبو محمد ابن جرير: "معنى الاقتداء في كلام العرب- بالرجل- : اتباع أثره، والأخذ بهديه .يقال: فلان يقدو فلانًا، إذا نحا نحوه، واتبع أثره"[٣].

وهذا هو معنى القدوة في القرآن أيضاً؛ فهو بمعنى التأسي، والسير على الطريقة، والاهتداء والائتمام والمحاكاة.

---

[١]) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٥/٦٦، مادة : (قدو).

[٢]) لسان العرب، لابن منظور ١٦/١٧١، مادة: "قدا".

فائدة: قال ابن عاشور: " ولا يعرف له [القدوة] في اللغة فعل مجرد فلم يسمع إلا اقتدى. وكأنهم اعتبروا القدوة اسما جامدا واشتقوا منه الافتعال للدلالة على التكلف كما اشتقوا من اسم الخريف اخْتُرف، ومن الأسوة ائْتَسى، وكما اشتقوا من اسم النَّمر تنمَّر، ومن الحجر تَحجَّر. وقد تستعمل القدوة اسمَ مصدر لاقتدى". التحرير والتنوير ٨/٣٥٦.

[٣]) تفسير الطبري ٩/ ٣٩٢.

قال الطاهر ابن عاشور: " والقدوة هو الذي يعمل غيرُه مثلَ عمله"[١].

ويأتي لمعنى القدوة والاقتداء في القرآن الكريم نظائر؛ وهي : الأسوة، والإمام، والاتِّباع، والمَثَل، وهي تأتي في جانب الخير وجانب الشر[٢].

ب- مؤمن آل فرعون سيرة موجزة:

تجبَّر فرعون الطاغية على أهل مصر، وجعل أهلها طوائف وطبقات، فاستعبدَ بني إسرائيل، واصطفى الأقباط وجعلهم أهل المكانة والحُكم، ونجح في اتخاذ ملئ فاسدين، يسيرون وفق رأيه، ويبتغون مرضاته، استخفهم فأطاعوه، واستمالهم فتولَّوه.

لقد بلغ فرعون من الفجور والبغي والكفر والسلطان مبلغاً عظيماً، بحيثُ يكونُ كثيرٌ من الأمم المعاصرةِ لنا أقلَّ منه شراً وبطراً[٣].

فلمَّا بُعث الكليم موسى –عليه الصلاة والسلام–، وجاء بالبينات الباهرات من رب العالمين، ما كان منهم إلَّا الظلم والعلو، والكفر والإشراك، والجحود

---

[١]) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٦.

٢) ينظر: بحث: القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم، للدكتور ناصر بن محمد الماجد ، مجلة الدراسات القرآنية، العدد: ٨، ١٤٣٢هـ، ص:١٢٠ وما بعدها.

٣) وكذا بلغ بمؤمن آل فرعون الضعف، والقلة ما يقِلُ –في هذا العصر– مشابهته، فإذا خاف الداعية من علو الفاجر، وقلة العدد والحِيلة؛ فليتذكر حال المؤمن –رحمه الله–.

بما جاء به، مع شهودهم معجزاته، ويقينهم بآياته، ولكنهم كانوا طاغين مفسدين.

ومن إفسادهم: إعادتهم الكرَّة على بني إسرائيل -قوم موسى عليه السلام- بالأسْر والتقتيل ، والاسترقاق والخدمة، ((فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) [غافر: ٢٥].

وجاء فرعون الطاغية برأيٍ شنيع، واقتراح على ملئه فظيع؛ فقال -لعنه الله- : ((ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ)) [غافر: ٢٦][١]، فعاذ النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- بالسميع العليم، والتجأ إلى ربه ومولاه -جلَّ ثناؤه- ((وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)) [غافر: ٢٧].

---

١) كان فرعون قادراً على قتل موسى -عليه السلام- دون الرجوع للملأ، فقد قتَّل بني إسرائيل، وقتل السحرة -رضي الله عنهم-؛ لكنَّ الخبيث علم أنَّ القوم لا يخرجون عن مشورته، وأراد منهم مشاركتة في القتل، وألَّا يكونَ في قلوبهم بعد ذلك ميْلٌ لموسى ودعوته .

ثم إنه قال لهم بعد ذلك : إنَّ هذا هو رأيي ومشورتي التي اختارها لنفسي، قال ابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٣١٤ : "قال فرعون((ما أريكم إلا ما أرى))، يقول: قال فرعون مجيبا لهذا المؤمن الناهي عن قتل موسى: ما أريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا". وينظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ١٣٣، أضواء البيان ٣٨٥/٧.

وهنا ظهرت رجولة المؤمن وإيمانه، فدافع عن نبي الله دفاع الحكماء من الشجعان، وحاور قومه وجادلهم ونصح لهم، لقد كان صوته وحيداً في محيطٍ مجرمٍ كافرٍ، كان رأيه مخالفاً للطاغية الأكبر، لقد وقر الإيمان في قلبه، وتعلق قلبه بمرضاة ربه، فأخفى إيمانه عن قومه زمناً، ثم زكّى إيمانه، وجاهد قومه برأيه وحِكمته، فمكر به القوم الظالمون –على عهدهم في الفجور–؛ لكنَّ الله الذي عهِدَ لينصُرنَّ من نصر دينه؛ نجّاه ووقاه، وكذلك ينجي ربنا المؤمنين.

اخْتلف في اسم المؤمن، فقيل: شمعون، وقيل: سمعان، وقيل: جبريل، وقيل: حبيب، وقيل: حزبيل[1].

وقيل: كان ابن عم فرعون، وقيل: هو المقصود بقوله –سبحانه– في سورة القصص: ((وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى)) [القصص: ٢٠][2]. والأظهر المشهور أنه قبطيٌ من آل فرعون وهو الذي رجحه ابن جرير، خلافاً لمن قال إنه إسرائيلي[3].

---

[1]) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٤/ ٣٥. واختلف في أسماء الكثير من السابقين، لكن آثارهم وأعمالهم باقية، وهي المراد في العبرة.

٢) ومِمَّا يُضْعِفُ هذا القول أنَّ المؤمن آمن بموسى بالبينات التي جاء بها كالعصا واليد، والرجل الذي جاء يسعى إنما كان قبل بعثة موسى –عليه السلام–، والله أعلم.

[3]) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٠٠، ٢٠/ ٣١٠ وما بعدها، تفسير القرطبي ١٥/٢٠٠، تفسير ابن كثير ٨/ ١٤٠.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله، عنهما قال :"لم يكن في آل فرعون مؤمن غيرُه، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى –عليه السلام– الذي قال: ((إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك))"[1].

هذا طرفٌ من أخباره، ذكره أهل التفسير والتأريخ، نقلوه عن الصحابة والتابعين، يُستملح ذِكره ويُعتبر، ولا يصح –عندي– في هذه العُجالة التحقيق فيه والإطالة، وإنما يكفي الإلماح والإشارة، والله تعالى أعلم.

---

[1]) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٢٦٦/٥، وينظر: البداية والنهاية ، لابن كثير ٢/ ٨٤.

المبحث الأول
الإيمان والحِكمة

عاش مؤمن آل فرعون بين الأسرة والقوم الحاكمين لمصر، ولمَّا جاء موسى –عليه السلام– بالبينات الواضحات، والآيات الباهرات؛ دخل الإيمان في قلبه، وآمن بالله العظيم، وبرسالة موسى الكليم، ولكنه كتم إيمانه، إمَّا خوفاً من فرعون وقومه، وإمَّا لعدم المصلحة من إظهاره، وإما غير ذلك، ثم دعا إلى الله ببصيرة وحِكمة، وأظهر التوحيد والإيمان وأعلنه، ويمكن إجمال صفات القدوة في الآتي:

- إشهار الإيمان وإعلانه ليس شرطاً في تحقق الإيمان، فربما يكون الأفضل والأصلح للشخص أو للدعوة هو الكتمان.
- ركَّز المؤمن –رضي الله عنه– على بيان البينات ، ((أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ)) ، ((وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ)).

إنَّ عرضَ الدعوة بالإقناع والدلائل والبينات يجلب الأتباع الصادقين من بلاط الملأ الكافرين، فما نُصرت الدعوة بمثل بيان الحق؛ لقد اخْتُرِق آل فرعون وهم الطبقة الحاكمة المترفة؛ فآمن أفرادٌ منهم –بعد فضل الله– بالبينات التي جاء بها رسول الله موسى –عليه الصلاة والسلام–، على الدعاة أن يعلموا: أنَّ المجتمع المترف لا يخلوا من عقلاء، وانظر: كيف نُصرتِ الدعوة بالمؤمن وامرأة فرعون والسحرة رضي الله عنهم وأرضاهم.

- فرضَ أسوأَ الاحتمالات لقومه؛ وهو أن يكون موسى –عليه الصلاة والسلام– كاذباً، فقدَّمه لهم قبل ذِكر صدقه، ((وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ))، فلن يضركم؛ إنما يضرُّ نفسه، لكن إنْ كان صادقا؛ أصابكم ما يعدكم به من العذاب.

قال ابن كثير: "وهذا الكلام في هذا المقامات من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام"[1].

–كان يعقِّبُ قوله بذكر القواعد العامة التي يتفق عليها الجميع، وفيها تنبيه، ووعظ بذكاء، من مثل قوله: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ))، ((وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ))، ((كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ))، ((وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)).

–تلطفه مع قومه، واستمالتهم ومناداتهم بـ : ((يَا قَوْمِ))؛ وفيها رحمة وولاء لهم، وإشعاره قومَه بأنَّ مصيرهم واحد ((فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا)).

–ويشتدُّ عليهم في العبارة أحياناً، زاجراً ناهياً، مبيناً سوء صنيعهم، وسفاهة فِعلهم، مثل قوله: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ

[1]) البداية والنهاية ٢/ ٨٦، وينظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٢٠٠، التحرير والتنوير ٢٥/ ١٣٠.

مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا))[1]، ((مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ))، ((لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ)).

-تحبيب طريق الخير والدين، ((يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ))، وفيها : إظهار الداعية فضله وعلمه على قومه[2]، ومقابلة لقول الطاغية: ((قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ))[3].

-اليقين بالمنهج والثبات عليه، والدعوة إلى التوحيد، وعدمُ اجتماعه مع الشرك، فإمَّا إيمان يهدي إلى الله وجنته، وإما سيئة وشركٌ يهدي إلى النار، لا خيار في المنتصف بين التوحيد والشرك، والكفر والإيمان، ((وَيَـقَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ(41) تَدْعُونَنِى لاَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَاأَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّرِ(٤٢) لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى

---

[1]) على القول بأنه من مقول المؤمن.

٢) من الواجب أن لا يتعالى الداعية على الناس، لكن من الحسن أن يظهر فضله وعلمه على الناس إذا كان ذلك من مصلحة الدعوة، ويبيِّن يقينه بمنهجه، كما قال نوح -عليه السلام-: " وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" [الأعراف: ٦٢]، وقول إبراهيم -عليه السلام- : "يَا أَبَتِ *إِنِّي قَدْ جَاءَنِي* مِنَ *الْعِلْمِ* مَا لَمْ *يَأْتِكَ* " [مريم: ٤٣].

٣) إنَّ المقول بحسْب القائل، دعا مؤمن آل فرعون إلى سبيل الرشاد وصدق، وادَّعاها فرعون الطاغية وكذب، كما كفر بنو إسرائيل وعُذِّبوا لمَّا قالوا: " *أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً" [النساء: ١٥٣]*وقال موسى الكليم -عليه السلام- : *"رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ" [الأعراف: ١٤٣]* وهو - في عصره- أول المؤمنين.

إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلاَ فِى الاَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَبُ النَّارِ)).

-دعوة قومه لاستشراف المستقبل -فيما لو أصرُّوا على الكفر- ((فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ))، وفيها تهديد ووعيد.

- وبعد بيان الحُجة، والانتصار للدعوة، والتعرُّضِ للبلاء : تفويض الأمر لله، ((وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرُ بِالْعِبَادِ))، وهي سنةُ نبيه موسى -عليه السلام- لمَّا همُّوا بقتله: ((إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)).

إنَّ اللجأ إلى المولى -سبحانه- والفزع إليه شعارُ أهل الإيمان.

-مع أنَّ النبوة أصل وركنٌ في الدين؛ إلَّا أنَّ المؤمن -رضي الله عنه- في دعوته لقومه لم يشخِّص الدعوة في شخص موسى -عليه السلام-، فكان يدعوهم إلى أصول دعوته كالتوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والتحذير من الشرك.

- وهكذا كان محمد - صلى الله عليه وسلم- أولَ المؤمنين، وسيد الحكماء، أُمرَ بالرسالة والتوحيد، والنِّذارة من الشرك والبراءة من المشركين ومعبوداتهم، دعا إلى الله -سبحانه- بالحكمة، وبلَّغ رسالة مولاه -جلَّ جلاله- بالحُسنى، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما ذكره الذاكرون، وغفل عنه الغافلون.

أمَّا كتْم الإيمان، فلم أقف على ما يفيد أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم كتم إيمانه عن أحد، غير أنه لمَّا سأله أحد المشركين عن التعريف بنفسه

في طريق خروجه لغزوة بدر –وكان صلى الله عليه وسلم لا يرغب أن ينتشر خبر خروجه– ، فقال –عليه الصلاة والسلام–: "نحن من ماء". يقصد من ماء مهين، فولَّى الرجل وهو يقول أمن ماء العراق[1]، وكذا كتمه الدعوة أول البعثة، وكان بعض الصحابة أوَّل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم يكتم إسلامه، كالعباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– [2]، وقصة نعيم بن مسعود –رضي الله عنه– في غزوة الخندق عندما أسلم ولم يعلم به قومه وتخذيلة الأحزاب[3].

وفي تقديم المؤمن –رحمه الله– احتمال كذب موسى –عليه السلام– مع علمه بصدقه؛ نتذكر قوله تعالى: ((قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)) [سبأ: ٢٥]

وقد سار النبي –صلى الله عليه وسلم– بالحكمة وفق ما وجهه ربنا –عزَّ وجلَّ– بقوله: ((ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)) [النحل: ١٢٥]، حكيماً منذ جاءته الرسالة حتى لقي ربه، حكيماً في دعوته وتعليمه، حكيماً في تعامله مع أصحابه وأهل بيته، وتعامله مع أعدائه من المشركين والمنافقين، لقد

---

١) أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٤٣٥، وينظر: سيرة ابن هشام ١/ ٦١٦ .
[2]) ينظر: مسند الإمام أحمد ٣٩/ ٢٩٠.
[3]) ينظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩.

كانت حياة المصطفى كلها حِكمةً، لطفٌ ولينٌ في مواقف، وحزم وشِدةٌ في أخرى، كانت الحكمة له سجيَّة؛ بما منَّ عليه ربه –سبحانه– من الوحي والعقل والرسالة؛ فالحمد لله الذي جعلنا من أهل ملته، ومن أتباع رسالته، ونسأل الله الثبات حتى نلقاه على الحوض، ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)) [آل عمران: ١٦٤].

المبحث الثاني
الجدال بالحق والمنطق

لمَّا جاءت للمؤمن –رضي الله عنه– البينات، والدلائل الواضحات بصدق موسى –عليه الصلاة والسلام– ورسالته ودعوته؛ سرت الهداية في نفسه، ووقرَ الإيمان في رُوعه، وأثَّر ذلك على منطقه، وعلى دعوته وجداله قومه، فنافح عن موسى بعلم، ودَفَعَ عنه القتل بحجة.

في الجدال ما هو محمود كجدال الملائكة ربنا –سبحانه– في خلق البشر، وكمجادلة الأنبياء أقوامهم، وفيها إقامة الحق بالأدلة، وهو مأمور به كما قال ربنا –تعالى– "وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [النحل: ١٢٥]، ومن الجدال ما هو مذموم كجدال إبليس في السجود لآدم، وجدال أهل الزيغ في ألوهية الله –جلَّ جلاله–، وهو الجدال بلا حجة ولا برهان[١].

وفي حوار مؤمن آل فرعون لقومه، وجداله لهم ظَهَرَ علمُه وعقله، وتحدث بحجة وبرهان، مع رحمة ظاهرة، ولطف بالغ، حريٌّ بأهل الإيمان أن يقتفوا أثره، وينهجوا نهجه، أُجملُ بعض سماتها في الآتي:

–الدعوة إلى الدين الصحيح بحاجة إلى حججٍ دامغة، أكثر من حاجتها إلى حماس وعاطفة، بحاجةٍ إلى منطق وعلم، أكثر من حاجتها إلى قتال وتضحية، مع أهمية الجميع، لكن الأول أولى.

---

[١]) ينظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر الألمعي، ص: ٤٤ – ٦٠.

-استقباحه للمجادلة بغير علم، والاحتجاج بالباطل على الحق، فإن هذا الفعل المشين يبغضه أهل الإيمان، وقبل ذلك وبعده يمقته رب العالمين، ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا)).

-لمَّا ادَّعى فرعون خوفه على دين الناس أنْ يبدَّلَ، وحرصه على عدم الإفساد في الأرض؛ بيَّن المؤمن -رحمه الله- أنَّ الفساد في الأرض حلَّ على من بدَّل دين الله، وعادى الرسل وكذَّبَ الحق؛ فحاق عليهم العذاب والدمار، ((وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ)).

-لم يخاطب المؤمنُ -رحمه الله- فرعون مباشرة؛ مع أنه رأس الشر، لكنه وجَّه خطابه إلى الملأ، لأنه منهم، يبيِّنُ وجهةَ نظره، دون استثارة الشيطان الأكبر.

-عدم اليأس من صلاح القوم مع عتوهم وفجورهم، لقد أفسدوا في أرض مصر وعتوا، وتسلَطوا على الخلق وبغوا، ودانوا لحاكم يدَّعي الربوبية والألوهية، ولكن على أهل الإيمان والدعوة البلاغ، وعلى الله -سبحانه- الهداية[١].

---

١) ممَّا يدلُّ على عدم يأسه من دعوة قومه: ما قاله في بيان حالهم مع نبي الله يوسف- عليه السلام- فقد أذعنوا له للسلطان الذي بوأه الله له، وقد كانوا في ريبة وشك،==

-تبشيع فعلِ الظالمين، وعدم عقلانية رأيهم، حين قال لهم:((أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ))، أي: بأي عقلٍ وبأي منطقٍ تقتلون رجلاً بسبب رأيه في كون الله هو الرب المعبود؟!

والمسرفون الذين أشار لهم المؤمن في أكثر من موضع: هم سفاكوا الدماء[1].

لقد بيَّن لهم أنَّ قتلَ موسى خطأ صِرفٌ، ترجع فيه الخسارة عليهم، سواءٌ كان صادقاً أو ليس كذلك.

-ضرب الأمثلة والأشباه في الجدال، بحيث يقرُّ الخصم بها، وقد اختار المؤمن يوسف -عليه السلام- مثالاً؛ لأنَّ يوسف نبي أذعنوا له، جاء بالبينات كما جاء موسى بها، وهما من بني إسرائيل، ودعوتهم كانت لأهل مصر.

-اليقين بالله لا يزيله الشك، وقد بيَّن المؤمن -رضي الله عنه- أنَّ من لا يملك نفعاً ولا ضراً لا يستحق أن يعبد، وأنَّ من يملك التصرف في الكون هو الأهل للعبادة، ((لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

== فلمَّا مات -عليه السلام- كأنما استراحوا منه ومن دعوته فقالوا : (*(لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا*))، ممَّا يدلُّ على تشبع آل فرعون بالفجور، وتركهم اتباع الرسل، وضلالهم من زمن بعيد. قال ابن كثير: "وأخبر [أي المؤمن] عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، أن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل" البداية والنهاية ٨٩/٢.

[1]) ينظر: تفسير الطبري ٢٠/ ٣٣٣، المحرر الوجيز، لابن عطية ٥٦١/٤.

الْآخِرَةِ))، قال أبو جعفر: "يقول: حقاً أن الذي تدعونني إليه من الأوثان، ليس له دعاء في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه جماد لا ينطق، ولا يفهم شيئا"[١].

-اجتهد المؤمن في بيان أنَّ دنياكم التي تنعمون بها في خطر، وملككم وسلطانكم القديم يتعرض للهلاك في حال اقترفتم الخطأ الأكبر بقتل موسى وتكذيبه، لقد خوفهم فوات الدنيا التي بها يعجبون، وزوال الرفاه الذي فيه يهيمون، ((يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا))[٢].

-الوعظ لا ينفكُّ عند الجدال مع الآخرين، فلمَّا بين المؤمن الحجة والبرهان؛ اجتهد فرعون في التشغيب على الدعوة، وتشتيت أنظار الناس وجهدهم إلى بناء الصرح الشامخ، الذي زعم أنه سيطلعُ على رب العالمين ، تعالى الله وتقدَّس عما يقول الظالمون، فما كان للمؤمن إلَّا الموعظة والتذكير.

وهكذا كان محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- مجادلاً بالحق، مبيناً شرع الله بالدلائل والبينات، مُنافحاً عن دين الله داعياً له بالحجج والبراهين، ومع كمال عقله، وقوة رأيه وحجته، فقد أُنزل عليه كلام ربنا -سبحانه- العليم الحكيم؛ فلزم وحي الله، وبيَّن عن الله آياتِهِ، والقارئ لكتاب الله -جلَّ شأنه- يرى الدلائل البينات على الرب -سبحانه- ، وعلى البعث بعد الموت، وعلى صدق

---

١) تفسير الطبري ٢٠: ٣٣٢.

٢) المقصود بالأرض هنا: أرض مصر، وهذا الذي كان يسميه الإمام الشافعي -رحمه الله- العام الذي يراد به الخاص، ينظر: الرسالة، للشافعي ص: ٥٨.

نبوة الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–، وعلى إعجاز القرآن الكريم، وعلى شرائع الله وتوحيده، وأسمائه وصفاته وأفعاله.

لقد استجاب محمدٌ –صلى الله عليه وسلم– لِما أُنزل عليه من الوحي حين خاطبه ربه بقوله ((وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) [النحل : ١٢٥]، وقوله: ((وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) [العنكبوت: ٤٦]، وبيَّن سبحانه لنبيه أنَّ كفار العرب وأضرابهم من الكافرين إنما يمارون بباطل ويجادلون بغير علم: ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر: ٥٦]، وقوله: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)) [الحج: ٨]، وهذا هو فعل آل فرعون، بل شريعة الكفار من قبل: ((وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ)) [الكهف: ٥٦].

ومع حجج الكافرين الجاهلة إلا أنَّ الله سبحانه كان يدحض حججهم بالبيات والبراهين، كما قال تعالى: ((وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ...)) [الزخرف: ٥٧ – ٦١]، وكذا رده عليهم في قُدرةِ القادر –سبحانه– على البعث بعد الموت، وعلى سبب الخلق، وإفراد الله –جل وعلا– في العبادة، في قضايا متعددة في القرآن الكريم.

المبحث الثالث:
النُّصرة لأهل الإيمان.

من شرفِ سيرة المؤمن –رضي الله عنه– ، وسمو فعله؛ أنَّ سورة غافر تُسمى "سورة المؤمن"، ولعل أبرز سِمةٍ نجدها في قصته: نصرته لأهل الأيمان، ودفاعه عن نبي الله موسى –عليه الصلاة والسلام–، وذبِّه العدوان عليه، لقد كان من الملأ الحاكمين، وكانت الدنيا له مفتوحة، ورأيه الذي تفرَّد به –من ترك موسى ودعوته، بل والدعوة إلى ما دعى إليه– تفتح له باب عداوة، وتجعل القوم المجرمين يتسلطون عليه، ويمكرون به، لكنه آثر الباقية على العاجلة، والرجولة والنصرة، على الصغار والذلة، ويُمكنُ إجمال معالم القدوة فيما يلي:

- تأتي صفة الرجولة في القرآن الكريم للتمييز عن الأنثى، وتأتي صفة مدحٍ تحوي في ثنايها صفات النُّبل والفضل والكرامة؛ وهي المرادة –والله أعلم– في قوله –جلَّ ثناؤه– : ((وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ))، لقد كان المؤمن –رحمه الله– شجاعاً حين قاوم وحده طوفان الفساد، قدَّم الشهامة والمروءة، على الدعةِ والسكون، وعرَّض نفسه للأذى في سبيل الدين والهدى.
- إنَّ الدعوة والداعي بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مناصرةٍ ودفاعٍ، خاصَّة إذا شَرَعَ أهل الباطل في السعي للإضرار بالدعوة، وهنا تبْرُزُ الفزعة، وتظهر البطولة.

تلك المكارم لا قُعْبَان من لبنٍ *** شِيبا بماء فعادا بعد أبوالا [1]

- ارتقى المؤمن –رحمه الله– مرتقاً صعباً، وغامر بحياته لأجل التوحيد والدعوة؛ فكافأه رب العزة والجلال بالنصر والوقاية في الدنيا من مكر الماكرين، وكيد الفاجرين. ((فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)).

وكذلك سنة الله الغالبة التي كتبها لينصرنَّ من نصر دينه، وإنَّ النصر الأكبر الذي عليه المعول: هو النصر الأبدي في دار الخلود؛ نصرٌ لا تعقبه هزيمة، ولا تشوبه شائبة، وقد يؤجل الله نصر الدنيا لعباده المؤمنين ابتلاءً لحكمة.

قال السدي: "قد كانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون؛ وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوماً فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم"[2].

---

[1]) والبيت للنابغة الجعدي، ينظر: التمثيل والمحاضره، لأبي منصور الثعالبي، ص: ٦٢.

٢) أخرجه الطبري في التفسير ٢٠/ ٣٤٥ .

وعلق الإمام أبو جعفر ابن جرير على قول الحق سبحانه: ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)) بكلام حسن، أسوقه بطوله لأهميته: "يقول القائل: وما معنى ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)) وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثلوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من همَّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه==

==مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟!

قيل : إن لقوله : ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)) وجهين كلاهما صحيح معناه:

أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائنا لهم على من كذَّبَنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد –صلى الله عليه وسلم– بإظهاره على من كذبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذبهم وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقا، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحد وجهيه...

والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ :إنا لننصر رسولنا محمدا –صلى الله عليه وسلم – والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، كما بينا فيما مضى أن العرب تخرج الخبر بلفظ الجميع، والمراد واحد إذا لم تنصب للخبر شخصا بعينه" تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٥،٢٤٦.

- وهكذا كان محمد –صلى الله عليه وسلم– مناصِراً للحق وأتباعه، مدافِعاً عن أهل الإيمان، داعياً أصحابه إلى نصُرة المظلوم، وأخذ حقه، وزجر الظالم وقطعِ دابره، فشُرع الجهاد والقتال لإقامة القسط بين الناس.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم– : "شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه[1]" ، وفي قصة الإراشي الذي اشترى منه أبو جهل إبلاً ثم ماطله في حقها؛ فأقبل الإراشي إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– طالِباً النصرة، فمشى معه إلى أبي جهلٍ وردَّ حق الغريب إليه[2]، ولمَا رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– أبا مسعود البدري يضرب غلاما له قال له: "اعلم، أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فقال أبو مسعودٍ: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً[3].

---

١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٩٣/٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح .
وحلف المطيبين: هو حلف الفضول، حين اجتمعت رجالات وبطون من قريش على نصرة المظلوم، ينظر: سيرة ابن هشام ١/ ١٣٣.
٢) ينظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠.
والإراشي: من قبيلة إراشة، وهي بطن من خثعم. ينظر: عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، للحازمي ص: ١٠.
٣) أخرجه مسلم في الصحيح ٤/ ١٢٨٠ .

وقد استعاذ –صلى الله عليه وسلم– من الجبن، وكان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس؛ ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف وهو يقول: "لم تراعوا، لم تراعوا"[1].

وهكذا ربَّى النبي –صلى الله عليه وسلم– أصحابه؛ فغدوا بعد أن وقر الإيمان في قلوبهم أسود وغى، ورجالاً نبلاء ((رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)) [الأحزاب: ٢٣].

أخرج البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير، قال :قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟ قال بينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر –رضي الله عنه– فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وقال: ((أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم))[2].

---

[1]) أخرجه البخاري في الصحيح ١٣/٩، ومسلم في الصحيح ١٨٠٢/٥.
[2]) صحيح البخاري ١٢٧/٧. وفيه: أنَّ سمات القدوة تتوارث عبر الأجيال الصالحة من أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الرابع
الوعظ والتذكير

يلحظ القارئ لقصة المؤمن –رحمه الله– ومخاطبته قومه الحسَّ الوعظي الذي ظهر في كلامه، كان مذكِّراً القوم الظالمين مغبَّةَ إعراضهم عن الله وآياته، وجحودهم فضله وإنعامه، ذكرهم باليوم الآخر وهوله، ومواقف الظالمين من الأمم السابقة ومصارعهم، ذكرهم بحقيقة الدنيا، خوفهم بالله العزيز، ورغبهم بجنته وواسع مغفرته وعفوه، ويمكن إجمال صفات القدوة في الجانب الوعظي في خطاب المؤمن بالآتي:

- التذكير بفضل الله ونعمته، وأنَّ البغي والعدوان سبيلٌ لقطعها وتبديلها، ((يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ)).
- التخويف من مقت الله وغضبه، ومن بأسه وعذابه في الدنيا[1]، ((وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ))، ((فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا)).

١) ينظر في معنى (بعض) هنا ما ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٥٦/٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٦/٤ فقيل: إن المقصود عذاب الدنيا، وقيل: إن بعض العذاب الذي يعدكم مهلكٌ لكم، وقيل: إنَّ بعض هنا بمعنى (كل)، وهي أوجه تفسيرية معتبرة، والله تعالى أعلم.

- التذكير بمصارع المكذبين للرسل من قبل، وأنَّ التاريخ يعيد نفسه، وأنهم لمَّا عصوا شرع الله، وكفروا بالرسل وتحزَّبوا ضدهم؛ حاق بهم العذاب، وحلَّ بهم العقاب، ((وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)).

قال أبو جعفر: "وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلما منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه؛ لأنه لا يريد ظلم عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره"[1].

- التخويف باليوم الأعظم، يوم الولولة والصياح والمشاحَّة، يوم الهروب والفرار –ولا مفر–، يوم القيامة –هونه المولى علينا– ، ((وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)).

فما وُعِظَ المتكبرون بمثل التذكير بيوم الجزاء والحساب.

- بلغ أهل مصر في عهد فرعون مبلغاً كبيراً من الكفر والفسوق والعدوان، وقد يكون في آل فرعون من لم يؤمن بالبعث، أو لم يصدق بحقيقة الأمم السابقة، ومنهم من شك فيها، ومنهم من وقعت

---

١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٥.

في نفسه وبحاجة تذكير؛ لكن الداعية الموفق من ينشر دعوته، ويبيِّنَ حجته؛ لعل أذناً واعية تستمع، وقلباً حيَّاً يرعوي.

- بيَّن الداعية وقارن بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، بين الفناء والبقاء، بين المتاع الموقَّت الزائل، والأبدي الدائم المستقر ، ((يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ))[١].

- التحذير من المجادلة في الله وآياته بغير علم، وقد سبق.

- التذكير بالله العزيز العظيم، المالك المتصرف، العفو الغفور، إليه المرجع والمعاد ، ((تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ)).

- حين ظهرت الحجة وبانت، أراد فرعون الكافر التشتيت وإشغال القوم ببناء الصرح؛ فردهم المؤمن إل الوعظ، وقد سبق.

---

١) ورد ذكر الدنيا في القرآن أكثر من مائة موضع، دارت حول عمارتها، وما زيَّن الله فيها للناس؛ لكن العام الأغلب في مواضع ذِكر الدنيا: هو في التحذير منها، ومقارنتها بالآخرة، نحو قوله –جلَّ شأنه– : *"هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" [هود: ٦١]، وقوله: "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ* الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" [الكهف: ٤٦]، *وقوله –تعالى– : "وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ" [الضحى: ٤]، والآيات في الباب كثيرة معلومة.*

- بين المؤمن –رحمه الله– أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأن المعصية والشرك يجزى صاحبه وفق ما اقترفه مثلاً بمثل، أمَّا من آمن بالله وعمل الصالحات فلهم الأجر والثواب بغير عدٍّ ولا كيل، بل فضل وثواب مفتوح من لدن ربهم الكريم، في جنات الخلد يوم القيامة، ((مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)).
- وهكذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– واعظاً مذكراً: وكيف لا يكون كذلك وقد أُنزل عليه القرآنَ الكريم؟ ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)) [يونس: ٥٧]، وأمره –سبحانه وتعالى– أن يدعوا الناس بالموعظة الحسنة: ((ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)) [النحل: ١٢٥]، وحثه –جلَّ في علاه– على بذل النصح والتذكير ((وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)) [الذاريات: ٥٥]، والقرآن كله ذكرى ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)) [الأنعام: ٩٠]، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)) [ق: ٤٥].

لقد ذكَّر النبي –صلى الله عليه وسلم– كفار العرب من مقت الله وغضبه، وقصَّ عليهم أنباء الأمم من قبل التي كفرت بالله ورسله فعذبهم الله عذاباً شديداً؛ فقصَّ عليهم نبأ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ولوط وغيرهم –عليهم الصلاة والسلام– موعظةً لهم وتحذيراً بأنَّ عذاب الله ليس عنهم ببعيد، ((ذَٰلِكَ

مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)) [هود: ١٠٠ – ١٠٢].

حذرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– من جحود نعمة الله عليهم، فقد عاشوا في أمن بينما كانت الناس من حولهم تُتَخطَّف، كانوا آمنين حتى في تجارتهم ورحلاتهم في الشتاء والصيف، ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)) [النحل: ١١٢ – ١١٤].

أمَّا الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها فقد جاءت في مئات المواضع من القرآن والسنة، وفيها وصفهما، وأسباب دخولهما؛ بينها النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ونسأل الله أن يعيذنا من النار، ويسلك بنا طريق النجاة، ويجعلنا ووالدينا وذرياتنا وأزواجنا من أهل الجنة ونعيمها بفضله وجوده وإحسانه، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمــــة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين.

فعاقبة الدعوة حميدة ولاشك، منصورة بلا ريب، كتب الله لينصرنها؛ بشرط أن يتمسك الدعاة بأسباب الدعوة الراشدة، وبالطريقة التي سار عليها المرسلون والمصلحون من قبل، فقد نُصِر مؤمن آل فرعون مع قلته وضعف أسبابه المادية، وقوة عدوة وجبروته، وغَلب محمد –صلى الله عليه وسلم– أعداءه الكفار مع كثرتهم وقوتهم، وفي ذلك بيانٌ للدعاة، ونموذج لأهل الإصلاح، بأن يثقوا بالله ربهم، ويوقنوا أنَّ العاقبة لهم، ويحسنوا صنعاً مع قومهم؛ بدعوتهم بالطريقة التي كان الأُلى من الذين أنعم الله عليهم يدعون، وينْهجوا نهجهم، فيغنموا كغنيمتهم

وبعد نهاية هذا البحث أوجز أهم النتائج والتوصيات

أولاً : أهم النتائج

– أهمية إبراز القدوات الصالحة في حياة الفرد والمجتمع.

– أنَّ أمَّة الإسلام واحدة من لدن آدم –عليه السلام–، وفيهم معالم وقدوات كثيرون، وعلى رأسهم الأنبياء ، والصالحون من عباد الله سيما من خلَّد القرآن الكريم ذكرهم.

– عاش مؤمن آل فرعون فرداً في مجتمع كافر طاغٍ، واستطاع أن يؤثِّر في قراراتهم التي كادوا بها موسى –عليه السلام–.

- اشتملت قصة المؤمن على جوانب متعددةٍ من سمات الحمد، وصفات الاقتداء، أجملتْها الدراسة في أربع صفات:

أ- إيمانه وحِكمته.

ب-جداله بالمنطق والعقل.

ت-نصرته للمظلوم.

ث-موعظته قومَه الظالمين، وتذكيرهم بالله رب العالمين.

وفي ثنايا هذه الصفات؛ استلهمت الدراسة عدة دروس وعبر.

- كان محمد -صلى الله عليه وسلم- أول المؤمنين، وسِيد البشر أجمعين، ربَّاه ربه -جلَّ شأنه-، وجعل خُلقَه القرآنَ الكريم، فما كانت في مؤمن آل فرعون من صفات، كانت عند نبينا بأوعب وأوسع وأرفع.

- حريٌّ بالمسلم معرفة صفات الكمال عند صالحي البشر، والسير كما ساروا؛ حتى يفوز كما فازوا.

ثانياً : أهم التوصيات:

- دراسة أوضاع القوم الذين بُعث فيهم الأنبياء والمرسلون ، والدعاة والمصلحون، فإنَّ معرفة حال الأقوام يساعد في فهم تنزيل الحوادث على السوابق، وقياس الفرع على الأصل.

- إشهار هذه النماذج والقدوات وصفاتهم في المدارس، والمحافل، والمجالس.

المراجـــع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د.عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ.
- -تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.
- تفسير الطبري، للإمام ابن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- -التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٨٣.
- الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- الرسالة، للإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد

شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ.

- زاد المسير، لابن الجوزي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- السيرة النبوية، لابن هشام المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ.
- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة.
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، لأبي بكر الحازمي، تحقيق: عبدالله كنون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ، ط٢، ١٣٩٣ هـ
- القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم، للدكتور ناصر بن محمد الماجد، بحث منشور في : مجلة الدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، العدد: ٨، ١٤٣٢هـ.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

- **معجم مقاييس اللغة، لابن فارس الرازي، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.**
- **مناهج الجدل في القرآن الكريم، للدكتور زاهر الألمعي، ط٢، ١٤٠٠.**